

المعاصرين ، وقطب من أقطاب التربية والتعليم جمع إلى العلم
النزير ، المثالية الإسلامية في أروع صورها

حصل على ثقافة عميقة الجذور في كلية المعلمين في بيروت
زمن الحكم العثماني ، بحكم ذكائه الذي جملة الأول على جميع
الطلاب في جميع سنوات الدراسة ، والتحق بالجيش ، فصقلت
خشونة الجندية الرجولة الفذة الكامنة فيه ، وطيمته بطابع الصرامة
والجد ، في كل ما يتصل بنفسه وعمله من شؤون ؛ والجندية
كالنار ، لا يخرج منها غير المدن الصافي ، والذهب الإبريز
وحين كانت الجحافل التركية تتراجع أمام جيوش الثورة العربية ،
التي كان يقودها المغفور له فيصل بن الحسين ، في الحرب المالية
الأولى . في وهاد الأردن ، وأطراف النوبة ومرتفعات الأرز ،
انتقاما من وحشية الأحماديين ، متمثلة في فظاعة السفاح ،
الطاغية ، جمال ، الذي راح يطارد ، في جنون السلطان المطلق ،
أحرار العرب ، ويسوق إلى أعواد المشانق ، الصفوة المتأززة من
رواد الحرية في الأمة العربية ، في عالية ، وقد التفت حوله بطانة
مجرمة من رجال السوء ، والخونة المارقين في أردية الكهنوت
الإسلامي ، كانت تعمل في الوقت نفسه لحساب الحلفاء ، راحت



بلادنا فلسطين

(٢٢٩ صفحة من القطع المتوسط طبع القاهرة ١٩٤٨)

التاريخ القديم للشرق الأدنى

(٢٦٦ صفحة من القطع المتوسط طبع بيت المقدس ١٩٥١)

تأليف الأستاذ مصطفى مراد الدباغ

للأستاذ علي محمد سراطوي

الأستاذ - ، مصطفى مراد الدباغ ، مؤلف هذين
الكتابين ، افتتح في معارف حكومة فلسطين سابقا ، والوكيل
المساعد لوزارة المعارف الأردنية اليوم ، وأحد أفراد أسرة الدباغ
اليافية ، التي اشتهر أفرادها بالفضل والعلم والأدب ، ومنهم
الشاعر البديع الرحوم إبراهيم الدباغ في مصر ، علم من أعلام المؤرخين

ولكنت سلكت مسالك الناس
وكشفت لهم عن آلامي
ولكنني لم أجد قلبا كتبتك
يقسع لسبر أغوارى
وكشف حنايا نفسي
أبكى لأعلن لك أسرارى
وأطرح عليك أفتالي

وبعد فأنا موقن بأن الشاعرة « هند » لو كتبت هذه القطعة
على أنها لوحة نثرية لجاءت غاية في الروعة ، ولكانت أقوى ألف
مرة ، من هذا التزيق والتقسيم والتطبيع لأوصال الكلمات والجل
حتى يمكن أن يطلق عليها اسم الشعر النثور . . وما أخذه من اسم

أنور الجندي

وأنتقلت قلبي الرزايا والحنن
ففي وشوشاتك للكلمة والحرف
ما يخفف عن القلب أفتاله
وفي ديبك على القرطاس . .
ما يفك عن الصدر أغلاله . .
ويحملني بعيدة
بعيدة على أجنحة الأثير
لولاك يا قلم
ما اتسمت بي الأرجاء
ولما كنت خفيفة طليقة كالنسيم
رغم نفسي الثقلة
القيدة بأسباب الحقيقة والوجود
لولاك
ما كان لي تعزية ساعات معدودة

الرفاعي رضوان الله ورحمته عليه، يوم أن كان أستاذاً محاضراً فيها، ثم الحق بإدارة التفتيش وبقى فيها حتى اليوم الخامس عشر من أيار ١٩٤٨ وهو اليوم الذي انتهى فيه الاستداب البريطاني على فلسطين

كانت المشكلة التي تواجه الوطن القومي، والتي كان يحيل للقائمين على تأسيسه أنها مستعصية الحل، هي الحصول على الأراضي الكافية لإقامة القلاع الحربية في مظاهر متواضعة من الأكوخ البسيطة، غير أن القدر الساخر مالبث أن جعل المشكلة بصورة عجيبية، عن طريق انتقال صفقات هائلة من أخصب الأراضي، قامت عليها من أزمان موعلة في القدم، قرى، ومزارع وفلاحون، إلى الأيدي الصهيونية، كانت تملكها الأسر الكبيرة من غير أهل فلسطين، تقم في الأقطار العربية المجاورة؛ ذلك إلى جانب اللوسائل الجهنمية التي ابتدعها رئيس الثيابت العامة نورمان بنتوش، بما كان يصدره من أنظمة تصفية وقوانين غريبة لوضع البلاد في أسوأ الأوضاع التي من شأنها أن تعجل في إقامة صرح الوطن اليهودي

وكان لا مفر لبناء الوطن القومي اليهودي من رسم مناهج التدريس في المدارس العربية الحكومية رسماً بارعا، تعين النتائج فيه على بناء ذلك الوطن، بخلق طبقة مستغربة من العبيد، لا تعرف مكانها من الكرامة، ولا تاريخها المجيد في تواريخ الأمم والشعوب، تيمش ليومها، ضيقة الآفاق، تعبد الغرب بدلا من الخالق، يملأ الغرور نفوسها، ويوهن ما في ضمائرنا من خلق وشرف ورجولة، طول الجرى وراء أجماد الماهرات من بنات إسرائيل؛ ولكن الله رد كيدهم إلى محورهم، فلم تفلح مناهجهم الآتمة في إخراج واحد من أبناء فلسطين، على النمط الذي أرادوه وكانت محاولة الإصلاح في جو موبوء مسموم من هذا النوع، ضربا في حديد بارد، ونقحاً في رماد، ولكن الأستاذ الدباغ، رأى في تلك المناهج، على الرغم مما فيها من فساد، شيئا لا بأس به من الخير؛ إذ ليس هنالك خير مطلق، أو شر مطلق في الوجود، وراح كالنواص البارع، يبحث في ظلامها الدامس عن الدر والجوهر، فوجد من ذلك ما حاول به إصلاح سوء النية في وضعها، وراح يركز نشاطه في بيئة الفلاحين، وفي مدارس

تلك الفئة التي تجرى في شرايينها معاني الرق، تحرف كلام الله عن مواضعه إرضاء لظفيانه، وتفتيه في خيانة أولئك الأحرار، محملة له سفك دماهم باسم الدين؛ لم يكد ذلك لئيم حتى كان حاييم وايزمن، المحاضر في جامعة منستر يقفه مل رثته، في عاصفة هوجاء من المرح الأرعن، ويشرب مع أصحابه الغادرين، نجب النصر الذي أحرزه على المغفور له الملك حسين بن علي، بوعد بلفور

لم يكن وعد بلفور في حقيقته غير بداية الهجوم على الشرق في حرب صليبية مقنعة، لم يكن للضمير الإنساني فيها أي نصيب، ونضاءت فظائع القدامى من الفاتحين أمام وحشيتها، وضراوتها، وهمجيتها، لكم حاولت - يشهد الله - تلك الحفنة الباسلة، التي كان نصيبها أن تكون في خط النار الأول في معركة الهجوم الوحشي على الشرق الأدنى، من أبناء فلسطين - أن ترسم أمام الأعين التي ينط أصحابها في سبات النفلة العميق، صورة الدوحة الهائلة تنبت من البذرة الصغيرة، وأن تجسم الخطر الذي سيهدد أمن الشرق جميعه من وراء عبارات وعد بلفور المتواضعة، ولكن كل تلك الجهود ذهبت عبثا، ولم يكن أملها غير الثبات إلى النهاية متحملة الخسائر في كل شيء، مدى ثلث قرن من الصراع الرهيب بين قوى غير متكافئة، وهي منفردة في معركة الشرف لم تترجح، ولم تفرط، حتى غلبت على أمرها، وشردت عن أوطانها، في مشارق الأرض ومنازلها، بعد أن استبيحت المحارم، وانتهكت الأعراض، وودنت المساجد، في عار لم تسجل صحف التاريخ مثله على أمة من الأمم، وسيظل الذين ظاهروا عليه، موضع اللعنة من الله ومن الأجيال المقبلة في تاريخ الأمة العربية والتاريخ الإنساني إلى يوم يشئون

عاد (أبو عمر) إلى أرض الوطن الذي بارك الله ثراه بإسراء سيد المرسلين إلى المسجد الأقصى فيه، فرأى أن العمل الخليق بالجندي الباسل هو التعليم، بحكم ما فيه من شرف بالغ، وتضحيات جسيمة، وعمل مجيد للامة يمد جذور حياتها إلى ربي المستقبل التحق بإدارة المعارف، مديرا لثانوية الخليل، ثم أستاذا محاضرا في كلية المعلمين بالقدس، تلك الكلية التي طافتها نفعات قدسية قومية ساحرة من عبقرية شاعر الأمة العربية معروف

وشجون ، حتى إذا ما دون أقوالهم ، انقلب إلى مكتبة غنية بالمصادر أنفق جهدا ومالا في سبيلها ، راجع وينقب ، حتى يصل إلى بعض الحقائق فيما لديه من أقوال . قد يرفضها كلها ، وقد يحذف بعضها ، وقد يزيد عليها ، وقد يدفعه البحث والتدقيق ، عن حقيقة من الحقائق ، إلى السفر من مدينة إلى أخرى ، أو إلى قطر مجاور ، حتى إذا فرغ من الأساس التاريخي لبحثه عن تلك القرية أو المدينة ، انصرف إلى البحث عن المحاضر ، وهو أمر ميسور تبرع لمعاونته عليه عدد كبير من المعلمين والموظفين في مختلف الإدارات الحكومية ، فكانوا يجمعون الإحصاءات المفصلة من التقارير الرسمية ، أو يحصون بأنفسهم ، وبمساعدة أهل القرى ، مالا يدخل في تلك التقارير ؛ فتجمع لديه من كل ذلك معلومات دقيقة عن عدد السكان ، وامتداد الذكور والإناث ، وعدد المعلمين ، ونوع التعليم ومستواه ، وعدد المدارس والطلاب والمعلمين ، وأنواع المحاصيل ، وعدد أشجار الفاكهة ، والمساحات التي تزرع بأنواع المزروعات ، وعدد الحيوانات ، والبيوت ، والمساجد ، إلى آخر ما هنالك من التفاصيل التي لم يسبق أن استعملها مؤرخ سابق على هذا النوع الدقيق من الأسلوب العلمي المضني الذي يتواءم به الفرد ولا يقوى عليه

وتقع هذه الموسوعة في عدة مجلدات ضخمة ، تولت مكتبة الطاهر إخوان عام ١٩٤٧ طبع الجزء الأول - القسم الأول ، منه في مطابع دار للتوزيع والطباعة والنشر في القاهرة - وتشاء الصدفة العجيبة أن يخرج هذا الجزء في شهر أيار من تلك السنة ، وهو الشهر الذي انتهى في منتصفه بدم عام واحد (١٩٤٨) الانتداب البريطاني على فلسطين

يقول الأستاذ البياغ في المقدمة : (هذه البلاد عربية منذ آلاف السنين ، وأول من عرف من سكانها الموجات العربية الأولى التي زلتها ، وقد قدستها الأديان العظيمة التي تدعو لخير البشرية ...

اجتهدت في إخراج هذا الكتاب في أجزاء عدة ، وجملت بحته يشمل تاريخ كل مدينة وبلدية ، وتاريخ ما تمكنت من الوصول إليه من القرى ، والمزارع ، والأنهر ، مع وصف الحالة الحاضرة في كل منها

الريف باعتبار الفلاح الحارس الأمين على أرض الوطن التي امتزج تراها بدماء الفاتحين من خيرامة أخرجت للناس ، وكان يهيب بضائر المعلمين ، ويبيع لهم التحلل من القيود النهجية في الحد الذي يبصره الضمير القوي من حذف أو زيادة أو تغيير ، وأن تركز المسائل الحساية على شراء الأرض ، وأن لا يجري بيعها على لسان أبدا

وظهر في هذه الفترة كتابه (في القرية) ، ويدعو فيه إلى تركيز القوى للنهوض بالفلاحين ، وتوفير ما يكفي من الخدمات الصحية والتعليمية لرفع مستواهم ، وتوفير عدالة اجتماعية في الحدود الممكنة

وأدرك السير (آرثر واكوب) التدوب السامي على فلسطين آنذاك ، والذي كان يتظاهر بصداقة الفلاحين ، ويكثر من زيارتهم ، والحفاوة بهم ، على الرغم من دخول أكبر عدد من المهاجرين أيام حكمه ، وكأنما كان يمثل دور الصياد الذي يسكي وهو يذبح العصفير في القصة الشهيرة ؛ أدرك ذلك الداهية الأريب والجندى المدرب ، وكان رجلا ، قدر المؤلف الرجل ، وقدر صدق وطنيته - وكان للسير واكوب ضمير إنساني حساس ، يختلف عن ضميره الرسمي - فبعث إليه بكتاب يطنح بالشكر ، وينوه بمجهوده نحو إصلاح القرية ، ويطلب إليه المزيد من العناية ، ويبارك عمله المجيد

من أبرز ما يمتاز به (أبو عمر) ، الأستاذ البياغ ، إحساس عجيب يسبق الزمن ، وما يجري وراءه من أحداث ، أو ما قد تتمخض عنه تلك الأحداث من مفاجئات وتناجج . ومن مظاهر ذلك الإحساس انكبابه على تأليف موسوعة تاريخية في هذه الفترة أطلق عليها اسم (بلادنا فلسطين) . وكأنما أتى إليه من وراء النيب ، أو أدرك بحاسة سادسة عجيبة ، أن أحداثا جساما في طريقها إلى تلك البلاد ، تأكل الأخضر واليابس ، وتمحو من سجل الوجود مدنا وقرى بأسرها ، وتشرذم أهلها

وقد كانت طريقته في تأليف تلك الموسوعة السير من المعلوم إلى المجهول . كان يسائل الممرين عما يعرفون من تاريخ قرايم أو مدنهم ، وأنسابهم ، وكل ما يتصل بماضيهم من شؤون

٣ - روى الشرف بسنده عن كعب قال : (أحب البلاد إلى الله الشام ، وأحب الشام إلى الله تعالى القدس ، وأحب القدس إلى الله تعالى جبل نابلس ، ليأتين على الناس زمان يتأسحونه بالجبال بينهم) صدق رسول الله فقد جاء ذلك الزمان

« ومن المصادقات العجيبة أن صلاح الدين الأيوبي ، تسلم القدس من الفرنج يوم الجمعة في السابع والعشرين من رجب سنة ٥٨٣ هجرية أي في ليلة المراج المنصوص عليها في القرآن الكريم ، وهذا اتفاق عجيب ، فقد يسر الله بأن تعود القدس إلى أصحابها في مثل زمان الإسراء بالنبي الكريم (ص) (١) ترى من هو القائد العربي العظيم الذي أعدته قدرة الله لشرف إعادة القدس من الصهيونيين ؟

أما كتاب الأستاذ الثاني (التاريخ القديم للشرق الأدنى) فهو تلك القصة الخالدة من الصراع الدائم في تاريخ الحضارة ، يتابع المؤلف أحداثها في وصف تاريخ ولقعات رائمة تدل على فهم لما وراء حوادث التاريخ ، من عصر إلى عصر ، عبر الزمن القابض البعيد ، والإنسان هو الإنسان لا يتغير ولا يتبدل . لقد كان الشرق الأدنى ولا يزال ، مقابر القاتحين ، في جميع عصور التاريخ ، والجسر الذي عبرت فوقه موجات الحضارة ، وموجات الفتح ؛ ولم يعرف الزمان تاريخاً معقداً مثقلاً بالحوادث الجسام كتاريخ هذا الجزء المتعب من العالم ، يتصارع الأمم على وفرة خيراته وطيب مناخه ، وموقعه الطبيعي الاستراتيجي وهو يربط أجزاء القارات الثلاث العظيمة

يقول الأستاذ في مقدمة كتابه : (هذا كتاب وضعت لطلاب المدارس الثانوية ، وللطلاب الذين يستعدون لامتحان الاجتياز إلى التعليم العالي ، إلا أن القراء عامة ، في وسعهم أن يستفيدوا منه ، إذ يطلعون فيه على صفحة من تاريخ الشرق العربي في العصور القديمة ، وقد تبسطت في الكلام عن تاريخ بلاد الشام وعلى الأخص تاريخ القسم الجنوبي منها ، وهو القسم الذي يعرف الآن باسم « المملكة الأردنية الهاشمية » ، وكان يسمى قبلاً « فلسطين وشرق الأردن » وهذا البحث ، على ما أعلم ، لم يتعرض

وقد رأيت أن البحث لا يستوفى ما لم يشتمل على المهتم من التاريخ العام للقطر الفلسطيني ، فقسمت هذا البحث على الأجزاء جميعها ، بحيث لا يفرغ القارى منها إلا ويكون لديه سفر تاريخي لهذه البلاد منذ أقدم الأزمنة إلى قبيل الوقت الحاضر ...

يبعث الجزء الأول من هذا الكتاب عن تاريخ القطر الفلسطيني ، منذ فجر التاريخ إلى انقسام المملكة اليهودية ، وعن تاريخ مدن وقرى وقبائل بلاد نابلس وسيتناول الجزء الثاني البحث عن غزة والسبع ، وقرامها وقبائلها ، كما أن البحث في الجزء الثالث سيدور عن يافا والرملة واللد وجوارها

وأرجو المولى أن يوفقني لإتمام البحث عن المناطق الأخرى من فلسطين

ثم تجهمت أحداث الزمن ، وتوالت النكبات بسرعة فأوقف طبع الأقسام التالية من الجزء الأول ؛ وليت الأمر وقف عند هذا الحد ! بل تمداه إلى خسارة فادحة بفقدان الأجزاء التي لم تطبع من الكتاب ، حين كان الأستاذ الدباغ ضمن آخر جماعات أرغمت على مناصرة يافا في باخرة رأى ربانها إلقاء عدد من الحقايب من حولتها إلى مياه البحر ، وكانت الحقايب التي تحمل ذلك الكنز الثمين من بينها . وكأن القدر أراد أن لا يبقى كتاب يتحدث عن بلاد ذهب وذهب أهلها

لقد أورد الأستاذ مقبسات من الأحاديث النبوية في الفصل الأول جاء فيها

١ - ع معاذ قال : قال رسول الله (ص) : (يا معاذ . إن الله عز وجل سيفتح عليكم الشام من بعدى من العريش إلى الفرات فمن اختار منكم ساحلا من سواحل الشام أو بيت القدس فهو في جهاد إلى يوم القيامة)

٢ - عن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله (ص) (يجتد الناس أجنادا ؛ فجندا بالشام ، وجندا باليمن ، وجندا بالمرق ، وجندا بالشرق ، وجندا بالغرب ، فقلت يا رسول الله ، إنى رجل حديث السن ، فإن أدركت ذلك الزمان فأيتها تأمرنى يا رسول الله ؟ فقال : عليك بالشام فإنها صغوة الله في أرضه ، يسوق إليها صفوته من خلقه)